

دراسات إسلامية

فصلية تعنى بالدراسات الإسلامية في عمومها وفنّها



العدد التاسع والثلاثون - صيف - ٢٠٢٤ م / ١٤٤٥ هـ

الرقم الدولي ٢٤٠٩-١٩٢٨ ISSN
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق الوطنية العراقية ٢٤٦٦

● الإسلام في مخيال الاستشراق

حسن أحمد الهادي

● مفردة (صهر) المعربة والدخيلة في القرآن الكريم

مساعدة. د. حسن أعظمي خويرد . مساعدة. د. مجتبى نوروزي . مهناز تفقدي

● بنات لوط في القرآن، نظرة عبر عدسة التقابل النصي

إشراف: سماحة السيد عبد الكريم الحيدري - إعداد: حمزة جعفر

● نقد روائي / كلامي لرؤية إيتان كولبرغ في موضوع التقية من وجهة نظر الشيعة الإمامية

مجيد معارف - السيد سجاد طباطبائي نجاد - يحيى ميرحسيني

● تفكيك مغالطات المستشرق الإنجليزي (همفري بريديو)

مكي سعد الله

● المستشرقون وثورة الإمام الحسين (عليه السلام)

نفيسة فقيهي مقدس

● نظرية ما بعد الاستعمار استشرافاً مضاداً وميلاداً لعلم الاستغراب

أحمد دحماني

● موسوعة القرآن لأوليفر ليمان

السيد مهدي اعتصامي - الشيخ محمد علي الرضائي الأصفهاني

المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية

نظرية مابعد الاستعمار استشرافاً مضاداً وميلاداً لعلم الاستغراب

أ. أحمد دحماني^[*]

الملخص

تعدّ ثنائيّة الأنا والآخر من المقولات البارزة في نظرية مابعد الاستعمار، التي تعمل على فضح الإيديولوجيات الغربيّة وتقويض مقولاتها المركزيّة، وجاءت مرافقة لمرحلة مابعد الحداثة، فهي تهدف إلى تحليل ما أنتجته الثقافة الغربيّة، وفكّ العقدة المزدوجة بين الأنا والآخر، والجدل بين مركّب النقص عند الأنا والعظمة عند الآخر، ضمن رؤية نقدية مستبصرة.

وإذا اعتبرنا الآخر موضوعاً للدراسة في إطار ما يسمّى بالاستغراب (occidentalism)، فهذا يجعلنا نتساءل عن الإشكالات الجوهرية التي طرحتها نظرية مابعد الاستعمار والتي تتعلّق بالاستغراب كالمركز والهامش وقراءة الفكر الغربي وأنساقه الثقافية وخطاباته المركزيّة، وهو ما يدعو إليه كثير من المثقّفين الذين ينتمون إلى نظرية مابعد الاستعمار ودعوتهم إلى استشراف مضاد، وهو جوهر فلسفة الاستغراب موضوع هذه الورقة البحثية.

كلمات مفتاحية: مابعد الاستعمار؛ منهج؛ استغراب؛ مركز؛ هامش.

[*]- جامعة أحمد زبانة غليزان/ الجزائر كلية الآداب واللغات.

تقديم

لطالما تغت الأفلام الأوروبية بمركزيّة الحضارة الغربيّة والإعلان عن تفوّقها، والواقع أنّ الحضارة الإنسانيّة بمفهومها الشامل هي حضارة تشاركيّة ساهم في صنعها كلّ البشر وليست حكراً على نموذج غربي يسعى لفرض هيمنته وعلوّه وإقصاء ما دونه. «فمنذ نشأة الحضارة الغربيّة في بلاد اليونان وثمة اعتقاد راسخ لدى الغالبية العظمى من مفكرّهم ومؤرّخيهم بأنّهم الأصل لكلّ إنجاز بشري، وأنّه لولاهم لما كان هناك فلسفة ولا علم، وقد بُنيَ هذا الاعتقاد على أساس أنّهم الجنس الأرقى، وأنّ ما عداهم لا يصلح إلّا للرقّ والعبوديّة»^[١]، وقد سار على هذا الدرب معظم المؤرّخين بعد ذلك، معتبرين أنّ جلّ المنجزات الحضاريّة الكبرى مصدرها اليونان القديمة، فطال هذا المعتقد اليوناني إلى العصر الحديث للاستدلال به كركيزة من ركائز إثبات المركزيّة الغربيّة.

وقد ترسّخت تلك المركزيّة خلال حملات الغزو والاستعمار التي خاضها العالم الغربي لشعوب العالم الثالث من أجل فرض هيمنته وبسط نفوذه، لكن بعد تراجع الاستعمار التقليدي ظهرت خطابات مناهضة للكونياليّة سمّيت ما بعد الاستعمار، انطلاقاً ممّا سبق ذكره، هل يمكننا القول إنّ خطابات ما بعد الاستعمار وما تناولته من قضايا قد أسهمت في بلورة مفهوم الاستغراب؟ وخاصّة أنّها حملت على عاتقها نقض المركزيّة الغربيّة وتقويضها إلى أن ظهر الاستغراب كمصطلح مستحدث بل كمنظومة معرفيّة أو علم معاصر يعنى بفهم الغرب ومعاينته بالملاحظة والنقد ويكون نظيراً لعلم الاستشراف، فهو مشروع معرفي حضاري من أولويّاته التعرّف على مناهج التفكير الغربي الفكريّة والثقافيّة والإيديولوجيّة وإعادة قراءتها بروح نقدية عارفة.

١. فلسفة الاستغراب وعلاقته بنظرية ما بعد الاستعمار

ما بعد الاستعمار ينتقد المزاعم الشموليّة لنظم الفكر الغربيّة^[٢]، يمكننا الاكتفاء

[١]- النشار، مصطفى، المركزيّة الغربيّة نشأتها التاريخيّة وخلفياتها الإيديولوجيّة، رؤيا انتقاديّة، ص ١٨٥.

[٢]- لومبا، آنيا، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبيّة، ص ٢٤٥.

بهذا التعريف المختصر والجامع لنظرية مابعد الاستعمار وما تتضمنه من حمولات فكرية في مقولاتها الكبرى، ولعل ذلك يؤكد تقاطعها مع علم الاستغراب كما ذكر سعد البازعي وميجان الرويلي^[١]؛ كون الاستغراب حقلاً من البحث والتأليف يُعنى بدراسة الغرب أو الحضارة الغربية من خارجها، مما يجعله حقلاً مقابلًا للاستشراق كما مارسه الغربيون في دراسة الشرق من زوايا مختلفة. وقد شاع مصطلح الاستغراب نتيجة الجهود التي بذلها حسن حنفي في بعض دراساته، إلا أن الحقل نفسه موجود منذ فترة طويلة، وقد سبق لباحثين آخرين أن أشاروا إليه، كما أنه حقل يتقاطع بوضوح مع حقول أخرى، منها حقل الدراسات مابعد الاستعمارية أو مابعد الكولونيالية.

فنظرية مابعد الكولونيالية تشير إلى انتهاء مرحلة الاستعمار التقليدي وانتهاء الخطاب المتصل به، كالهيمنة والإمبريالية والمركزية وضرورة تركيز البحث على المرحلة التالية، وهي مابعد الاستعمار. كما يرى آخرون أن الاستعمار لا يزال قائماً، وأن فرضية المابعد لا مبرر لها، فكان من أولويات الاستغراب تحليل ما بلورته الثقافة الغربية في مختلف المجالات في مناهضة المركزية الغربية ومحاولة التأسيس لثقافة وفكر نابع من أصالة راسخة، وفك عقدة التبعية.

٢. الاستغراب قراءة الفكر الغربي وأنساقه الثقافية

بما أن مثقفي نظرية مابعد الاستعمار انكبوا على توجيه النقد للغرب وتتبّع الخطاب الاستشراقي الغربي وفضح مضمراته، فهم بذلك قد أسسوا خطاباً استشراقياً مضاداً، فالاستشراق باعتباره خطاباً كولونياً لا تكون مجابته إلا بعلم الاستغراب، «ويعدّ حسن حنفي من أهم رواد علم الاستغراب العربي، فقد كان هدفه مواجهة الاستشراق بفهمه بشكل جيد، واستيعاب منظومته الفكرية والفلسفية والعلمية لتبيان مظاهر قوة الغرب وضعفه»^[٢].

وما أنجزه في كتابه (مقدمة في علم الاستغراب)^[٣] ١٩٨١، حيث حاول فكّ عقدة

[١]- الرويلي، ميجان، البازعي، سعد، دليل الناقد الأدبي، ص ٣٨

[٢]- حمداوي، جميل، نظرية مابعد الاستعمار الأطروحة في خدمة علم الاستغراب، ص ٧٠.

[٣]- حنفي، حسن، مقدمة في علم الاستغراب.

النقص التاريخي في علاقة الأنا بالآخر، والقضاء على مركب العظمة لدى الآخر الغربي بتحويله من ذات دارس إلى موضوع مدروس، حيث إنّ الاستغراب في نظره هو الوجه الآخر والمقابل بل النقيض للاستشراق، فإذا كان الاستشراق هو رؤية الأنا (الشرق) من خلال الآخر (الغرب)، يهدف علم الاستغراب إلى فكّ العقد المزدوجة بين الأنا والآخر، والجدل بين مركّب النقص عند الأنا والعظمة عند الآخر، فقد أخذ الغرب دور الأنا فأصبح ذاتاً، واعتبر اللاغرب هو الآخر، فأصبح موضوعاً لعلاقة الذات الدارس بالموضوع المدروس، فكان الأنا الأوروبي هو منشأ العظمة عنده كونه ذاتاً دارساً، كما نشأ لدى الآخر مركب نقص كونه موضوعاً مدروساً، فالاستغراب استطاع قلب الموازين وتبديل الأدوار، فأصبح الأنا الأوروبي الدارس هو الموضوع المدروس، فكانت مهمة علم الاستغراب هي فكّ عقدة النقص التاريخي في علاقة الأنا بالآخر.

٣. نظرية ما بعد الاستعمار استشرافاً مضاداً

تعدّ نظرية ما بعد الاستعمار (Théorie.Postcolonial) من أهم النظريات الأدبية والنقدية التي رافقت نظرية ما بعد الحداثة. بدأت دراسات ما بعد الاستعمار منذ فترة طويلة، وقد ترعرعت على أساس من انهيار الإمبراطوريات الأوروبية العظمى في أربعينات القرن العشرين وخمسيناته وستيناته.

أمّا نظرية ما بعد الاستعمار، أو الخطاب ما بعد الكولونيالي فلم تعرف طريقها إلى الوجود في مجال النظرية السياسية إلا في أواخر السبعينات من القرن الماضي، ويعدّ كتاب الاستشراق (Orientalisme) ١٩٧٨ للأكاديمي الفلسطيني الأمريكي والمفكر الحداثي ما بعد الكولونيالي إدوارد سعيد (Edwardw.Said)^[١] أحد الأعمال التأسيسية الأولى في هذا المجال. لم يكتسب هذا الخطاب معناه الذي نعرفه الآن، ولم يصبح تسمية لنظرية في الدراسات الثقافية والنقد الأدبي إلا في الثمانينات

[١]- إدوارد سعيد (١٩٣٥-٢٠٠٣) فلسطيني الأصل، ولد في مدينة القدس وتوفي في نيويورك، كان ناقدًا وأديبًا وأكاديميًا من جامعة كولومبيا الأمريكية، ينظر ترجمته في مجلة فصول مجلة النقد الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب عدد ٣٤، ملف خاص بإدوارد سعيد.

والتسعينات من القرن العشرين. ونظريّة مابعد الاستعمار هي في الحقيقة قراءة للفكر الغربي في تعامله مع الشرق، بتعبير آخر تحلّل هذه النظريّة الخطاب الاستعماري في جميع مكوناته الذهنيّة والمنهجية والمقصديّة تفكيكاً، بغية استكشاف الأنساق الثقافيّة المؤسّساتيّة المضمرّة التي تتحكّم في هذا الخطاب المركزي^[١].

لقد شكّلت هذه التجربة الاستعماريّة التي لم تزل آثارها بزوال الاستعمار المباشر وتحقيق الاستقلال، الخلفيّة أو الأساس الذي ترتكز إليه مصطلحات (الأدب مابعد الكولونيالي) (النقد مابعد الكولونيالي) (النظريّة الكولونياليّة) و(الخطاب ما بعد الكولونيالي)، يمكن أن يدخل ضمن فضاءات النقد الثقافيّ المقارن، وهو نظريّة الخطاب الاستعماري، والخطاب مابعد الاستعماري، وكذلك دراسة الاستعمار، وأثر الاستعمار على المجتمعات المستعمرة، «لقد أجريت الكثير من البحوث النظريّة التي تنطلق أساساً من عمل إدوارد سعيد الذي حاول أن يصهر الخطاب عند فوكو وفرايز فانون»^[٢].

يمكن تقسيم مراحل خطاب مابعد الكولونياليّة إلى ثلاث مراحل متميّزة ومتداخلة^[٣]؛ فقد كانت المرحلة الأولى هي مرحلة الكتابة أيام الاستعمار وبلغة القوّة الاستعماريّة، ولا يمكن لهذه الكتابات أن تمثّل الثقافة الوطنيّة على الرغم أنها وصفت تلك البلدان المستعمرة وصفاً دقيقاً، أي أنها كانت منحازة للمركز ولم يكن ادّعاؤها للموضوعيّة سوى غطاء يخفي الخطاب الاستعماري الذي ولدت فيه، وتتمثّل أهم المصادر في هذه المرحلة في كتابات المستوطنين والرحالة، والسيّاح والموظفين الاستعماريّين وغيرهم.

أمّا المرحلة الثانية فهي المرحلة التي كتب فيها السكان الأصليون بلغة المستعمر وبأدواته ومنهجه. ولكن هذه الكتابات لم تستطع أن تجابه عنفوان الإمبرياليّة، على

[١]- سبيفاك، غايتري، منظرة هندية لخطاب مابعد الاستعمار، دان شمنا د جامعة كيرالا الهند، ص ٣٧.

[٢]- بيل أشكروفت وآخرون، الإمبراطورية ترد بالكتابة، آداب ما بعد الاستعمار النظرية والتطبيق، ص ٢٨.

[٣]- ينظر: بعلي، حفناوي، مدخل في نظرية النقد الثقافيّ المقارن، ص ٦٨.

الرغم من أنها حاولت أن تكشف ثراء الثقافة المحليّة وتاريخها الأصيل. وعنايتها بموضوعات مؤثرة مثل الظلم والوحشية ووجود تراث ثقافي غني أقدم من تراث أوروبا، لكن هذه النصوص كانت محاصرة وتحت ضغط القوى الاستعماريّة، مثلما كانت مؤسّسة الأدب في المستعمرات تحت السيطرة الاستعماريّة، التي هي وحدها من يجيز الشكل المقبول ويسمح بنشر الأعمال وتوزيعها.

وتمثّل المرحلة الثالثة مرحلة تطوّر الآداب المستقلّة التي وضعت حدّاً لهذه القوّة القائمة، وكيّفت اللغة والكتابة لاستخدامات جديدة ومميّزة، وهو الأمر الذي يشكّل السمة المميّزة لظهور الآداب ما بعد الكولونياليّة الحديثة أكثر من أي أمر آخر، فمن السمات المميّزة الكبرى لهذه الآداب عنايتها بالمكان والانزياح، حيث تبرز أزمة الهوية الخاصّة بمابعد الكولونياليّة بروزاً صارخاً^[١].

كما أننا نجد أنّ الكتابات المهاجرة حاولت خلخلة ثقافة المركز عبر طرحها لمجموعة من التساؤلات المثيرة وعبر محاولتها نزع صفة النقاء الثقافي الذي فرضته الهيمنة الاستعماريّة، فحدث تقاطع بين تصورين أو مشروعين أو ثقافتين، كل ذلك أدّى إلى ميلاد فضاء جديد يسمى بفضاء الهجينة، حيث تتعايش أو تتصارع ثقافة المركز وثقافة المهاجر، وهذه الهجينة هي اللون الثقافي الجديد، وليس الهدف هو إقصاء ثقافة المركز لتحلّ محلّها الذاكرة التاريخيّة المهمّشة، بل تفكيك تلك المركزيّة وإضافة تلك الذاكرة التاريخيّة المهمّشة، وقد انخرط في الكتابات ما بعد الاستعماريّة رواد من المفكرّين والنقاد، سواء أكانوا باحثين ينتمون إلى الغرب أم ينتمون إلى العالم الثالث، وفي مقدّمة هؤلاء الثالوث البارز: إدوارد سعيد، وغاياتري سبيفاك (Gayatri-Spivac ١٩٤٢-...) وهومي بابا (Homi.k.bhab) وفرانز فانون.

[١]- بعلي، حفاوي، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، ص ٦٩.

[٢]- هومي بابا (Homik.bhabha ١٩٤٩)، بومباي، أكاديمي هندي وأستاذ الأدب الأمريكي والبريطاني في جامعة هارفارد، ومنظر نقدي، يرأس مركز الدراسات الإنسانيّة هناك، يعدّ من أبرز الشخصيّات في مجال دراسات ما بعد الاستعماريّة المعاصرة، طوّر عدداً من الألفاظ الجديدة والمفاهيم الرئيسيّة في هذا المجال مثل التهجين، المحاكاة، الاختلاف، التناقض، ينظر تفصيلاً أكثر موسوعة المعرفة، تاريخ الزيارة ٢٠-٢٠٠٩، التوقيت ١١:٠٠ صباحاً، الرابط: www.m.marefa.org

أمّا الخصائص الأساسية للنصّ مابعد الكولونيالي، فقد تناولها بيل أشكروفت في مؤلفه المشترك «الإمبراطورية» حيث يرى: أنّه نصّ هجين في أفضل الأحوال، أي أنّه يتضمّن علاقة جدلية بين المنظومات الثقافية للدولة المستعمرة وبين المنظومات الثقافية للدولة المستعمرة، حيث إنّ لغة الاستعمار لم تعد نقية هي الأخرى بعد أن دخلتها وداخلتها شعوب وثقافات وطنية مختلفة^[١].

وهكذا نستطيع أن نقول بكل ثقة ودون منازع أن إدوارد سعيد هو أول من أسس هذا الحقل المعرفي (كتابة مابعد الاستعمار)، وإن كان أول من أشار إليها هو فرانز فانون، نجد لدى إدوارد سعيد في مقالاته التي اختارها في كتابه (العالم والنص والناقد) تأكيداً على الروابط التي تجمع النصوص بالوقائع الوجودية للحياة البشرية والسياسية والمجتمعات والأحداث^[٢]، وسبب ذلك أن الأدب بالنسبة إليه كان مهماً في عالمنا الحاضر، لأنّه يحمل كلّ ما هو جمالي وتاريخي ومجتمعي؛ ولذلك ينبغي للنظرية النقدية أن تصنع كل هذا في اعتبارها أثناء تعاملها مع النصوص، حيث نجد الكتابات في هذه النظرية تلجأ إلى تفكيك بعض المفاهيم ومحاولة تطوير مفاهيم بديلة كالوطن والقومية والتعددية والتوافقية والهجينة hybridité، مثلما أخضع إدوارد سعيد^[٣] للدراسة فكرة المنفى والوضع البيئية والهامشية التي يعيشها.

أ. فرانز فانون (١٩٢٥-١٩٦١) في الخطاب مابعد الاستعماري

لا يمكن بأي حال من الأحوال الحديث عن نظرية مابعد الاستعمار دون التوقّف أمام المنظر الأول لهذه النظرية (فرانز فانون) بأعماله التي عزّزها إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق، وهي الأعمال التي استخدم فيها نظرية التحليل النفسي، مطوّراً إيّاها لإبراز عواقب الاستعمار السيكولوجية والاجتماعية، وذلك بتركيزه على خطورة خاصية السواد باعتبارها عرقية، وأهميتها بالنسبة للمشروع الاستعماري القائم على

[١]- بعلي، حفاوي، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، ص ٤٨.

[٢]- سعيد، إدوارد، العالم والنص والناقد، ص ٨-٩.

[٣]- سعيد، إدوارد، الثقافة والإمبرالية، من مقدمة الكتاب.

القمع والتشويه، كذلك قابلية المستعمر الأسود للاقتناع بارتداء قناع أبيض في كتابه الشهير (وجه أسود وأقنعة بيضاء)^[١]، فحين يعلي الاستعمار من شأن الجنس الأبيض على الشعوب غير البيضاء، فإنه يخلق بذلك إحساساً بالاغتراب في هوية هذه الشعوب ضمن ظروف يتم فيها اعتبار تاريخ المستعمر الأبيض وثقافته ولغته وتقاليده ومعتقداته كونيّة ومتفوّقة بالنسبة لثقافة المستعمر، ممّا يخلق إحساساً قوياً بالدونية داخل ذات المستعمر، ويقوده إلى تبني لغة المستعمر وثقافته وتقاليده في محاولة لمواجهة هذا الشعور بالدونية.

كان فانون يؤمن على الدوام بأنّ مركّب النقص هذا المفروض على الشعوب المستعمرة بالقوّة لا يمكن إزالته إلّا بمكافحته ومحاربته وتحطيم الحاجز المبني حول بياض الرجل الأبيض وسواد الرجل الأسود، فهو يته الزنجيّة، حتى وإن كان إنساناً مهذباً تشرب من الحضارة الأوروبيّة وكان يوهّم نفسه بأن لون البشرة لا أهميّة له واضحاً على وجهه قناعاً أبيض، أمّا العناصر البيضاء فكانت من جهتها تتمسك بعناد بالصورة التي تحملها للزنجي البدائي الذي يبدو لها أشبه ما يكون بالدمية المضحكة، وهو يرطن بالفرنسيّة حتى حين تجتمع بإنسان مثل فانون يجيد الفرنسيّة إجادّة تامّة لا تستطيع إلّا أن تستشف العنصر الزنجي من خلال لونه الأسود^[٢].

لقد استطاع فانون أن يصف ببراعة كيف ينظر العنصر الأبيض إلى السود على أنهم مجرد رعايا بأقنعة بيضاء تلك المهانة التي يفرضها عليهم لونهم الأسود، لقد تكلم فانون باسم ملايين من الأفارقة والكادحين في جزر المارتينيك والمستعبدين تحت وطأة الاستعمار؛ إذ لم يكن قدومه إلى البلدة (جوان فيل) علم ١٩٥٣ بمحض الصدفة، بل اختار المجيء كي يفهم تأثيرات الاستعمار على الأشخاص، ويندّد بالممارسة القهرية والقمعية تجاه المرضى الأهليين (indigènes)^[٣]، ويحلل بصفة

[1]- Frantz Fanon, *Peau noire, masques blancs* (essai), première publication: 1952, Édition Talantikit, Bejaia, 2015.

[2]- كوت، ديفيد، فرانز فانون سيرة فكرية، ص ٣٨، ٤٤، ٥١.

[3]- ينظر: فانون، فرانز، معذبو الأرض تقديم ك شولي، ص ١١.

معمقة تلك الحالات ويعمل على شفائها ورعايتها، فكان مناضلاً متمرداً يشيد التحرر والانفلات من عبودية المستعمر.

غير أنه تمّ تجاهل أو إساءة فهم هذا الكتاب من قبل دول (العالم الأول) وعلى الأرجح أن سارتر (Sartre.J.P) قد تنبأ برّدة فعل الغرب هذه عندما كتب مقدمته المتأججة لكتاب قانون: «إن قانون لا يطمح في أن يحاور أوروبا الغرب، أن يخجلها من نفسها، أن يعري كذبها، إنه يعلم أن الاستعمار لا يمكن اقتلعه بالإقناع، وأن التحرر من الاستعمار لا يكون إلّا بالعنف، إن قانون يائس إلى أن تثوب أوروبا إلى رشدها إنه يفضح الاستعمار الجديد، مابعد الاستعمار^[١].

«كيف يمكن مداواة المستعمر من تبعيته...؟» ذلك هو السؤال الوجودي الذي كان يؤرق فرانز فانون في تحليلاته المستفيضة لحالة الإنسان الجزائري في فترة خضوعه للشرط الاستعماري، والذي لم يكن درساً نادراً في القدرة المعرفية على إخضاع الفكر الكولونيالي إلى وجهة النظر التي يحملها المستعمر (المارتينكي، الجزائري) عن مستعمره الفرنسي فحسب، بل كان كذلك رؤية مواجهة للتصور الكاموي في آنية انشغاله المخيف بالذات الغربية طيلة كل المعارك الفكرية التي خاضها في أوروبا (تحررية) مقابل (الجزارة)^[٢] * Algerianisme^[٣].

يقف على رأس أعمال فانون كتابه الشهير «معذبو الأرض» الذي كتبه وهو على فراش الموت يصارع مرض ابيضاض الدم وصدر عام ١٩٦١ وارتبط اسمه بالثورة

[١]- فانون، فرانز، معذبو الأرض، (les-damnes-de-la-terre)، ص ٥.

[٢]- مدرسة الجزائر تيار الجزارة وتسمى مدرسة شمال أفريقيا حسب ألبير كامو، وهي حركة أدبية تأسست في الجزائر في عقد الثلاثينات وجّه المستوطنون اليساريون مسارها وتميّزت بالتركيز على مواضيع البحر والشمس والحياة في المدن الساحلية. تحمل أفكاراً تدعو ظاهرياً إلى تقارب الشعوب، وتنحطّ الحدود القومية الضيقة إلى الانفتاح على كل سكان المتوسط، لكن سرعان ما ظهرت بوجهها الحقيقي ومطالبها التسلطية للمركزية الأوروبية، من خلال محاولة بعث القيم الروحية والفكرية اليونانية والرومانية متجاهلة تماماً بقية الحضارات المتوسطية، وقد كانت تضم عدداً من الأدباء الجزائريين أمثال كاتب ياسين مالك حداد مصطفى الأشرف وغيرهم. ينظر: منور، أحمد، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ص ١٤٤ وما بعدها.

[٣]- رابحي، عبد القادر، كامو... فانون معكوساً عن الخيار الكاموي وغربة المثقف الجزائري، ص ١٠.

الجزائرية إلى الأبد. وله كتاب (سوسيولوجيا الثورة)^[١] الذي غُيّر عنوانه بعد الترجمة، في حين أن اسمه الأصلي «خمس سنوات على الثورة الجزائرية»^[٢]، وهكذا أعيدت طباعة أعمال فرانز فانون واكتسبت أفكاره حياة جديدة بعدما ظن الكثيرون أنها قد انتهت بانتهاء العالم الذي تحدث عنه، عالم الاستعمار العسكري المباشر، لتعود كتاباته معاصرة وكأنها تكتب اليوم.

٤. براديجم التحرر الفانوني وعلم الاستغراب

إنّ البراديجم الغالب على تفكير فانون هو التحرر، خاصة كتاب (بشرة سوداء وأقنعة بيضاء، وكتاب المعذبون في الأرض)؛ إذ تأثر ببعض وجهات نظر جون بول سارتر وأفكار الشاعر والسياسي المارتينيكي إيمي سيزار (Aimé.Césaire ١٩١٣-٢٠٠٨)، والفيلسوف الظواهري ميرلوبونتي (M.Merleau-Ponty ١٩٠٨-١٩٦١) والمحلّل النفسي الفرنسي جاك لاكان (Jacques.Lacan ١٩٠١-١٩٨١)، لكن هذا الاستثمار الفانوني لم يكن بمنأى عن بعض التحريفات التي يصعب نوعاً ما أن يتقبّلها النصّ الفانوني في الخطاب مابعد الكولونيالي، مثلما فعل هومي بهابها في دراسته لفرانز فانون في كتابه (موقع الثقافة)^[٣] عندما ألّبه قبة دريدا والتفكيكيين، إنّ مسامرة هومي بابا في قراءته لفانون ستوصلنا إلى إفراغ فانون من مبدأ المقاومة، ويعدّ هذا الإفراغ الثوري بمثابة نسف جذري للمشروع الفانوني^[٤].

فحينما يقرّ فانون بتلاشي ثنائية المستعمر والمستعمر في سياق الانشطار الذي يخلقه السياق الاستعماري، فلا يعني هذا بتاتاً نفي هذه الثنائية بقدر ما يعني محاولة تطويرها للوصول إلى جدلية هيغليّة ذات تركيب منطقي يؤمن بالمقولة التاريخية، لقد ذكر فانون في مقاطع كثيرة من كتبه جدلية السيّد والعبد التي فلسفها هيغل في

[١]- فانون، فرانز، سوسيولوجية ثورة، (Sociologie-d'une-révolution).

[٢]- دوري، ثائر، أشباح فانون، www.kanaanonline.org

[٣]- هومي.ك. بابا، موقع الثقافة، الفصل الثاني: استنطاق الهوية فرانز فانون والامتياز مابعد الكولونيالي، ص ١٠٣.

[٤]- ينظر: فانون، فرانز، في التفكير ما بعد الحداثي الكلمة والشيء، تاريخ الزيارة: ٢٠/٠٩/٢٠٢٣، الرابط:

كتابه (فينومينولوجيا الروح)^[١]، إذ لا يمكن الاتكاء عليها في سياق كولونيالي؛ لأن المستعمر لا يمكنه الانعتاق من عقدة المستعمر إلا حينما يكون التحرر نابغاً من طبيعته النفسية، إن تناسي هومي بابا هذا الجانب أوصل بنزعته التفكيكية فرانز فانون إلى منطق خال تماماً من المقاومة؛ لأن تفكيك ثنائية (المستعمر، المستعمر) سيجرُّ البحث لا محالة إلى نفي ظاهرة الاستعمار من الأساس، إنَّ قراءة هومي بابا لفانون فيها خلط بين براديغمات (Paradigmes) من طبيعة مختلفة، فقراءة (براديغم التحرر) لفانون مع (براديغم العدم والسيولة) لجاك دريدا سيحوّل الفانونية إلى مجرد لعبة لغوية حرة ويفرغ هذا العمل من مغزاه وبعده الثوري. إنَّ فانون يعتقد أنَّ مشروعه لا بد أن يثمن؛ لأن فيه مبدأ نفي الهوية الاستعمارية (الانشطار) الذي يفصله يمكن إعادة توزيع الأدوار التاريخية وكتابة فصل جديد يقوم على الندية وليس على الفوقية^[٢].

إنَّ مشروع قراءة مدوّنة فرانز فانون كما يرى زواوي بغورة^[٣] تأخذ بعدين أساسيين؛ أولهما التوجّه الوجودي ويمثلها جون بول سارتر ضمن ما سمّاه بالاستعمار الجديد (Néo-Colonialisme)، وعرضها في مقدمة كتاب فرانز فانون (معذبو الأرض) التي كانت منطلقاً لعدد كبير من الدراسات والأبحاث، أمّا التوجّه الثاني فينتهي إلى دراسات مابعد الاستعمار (Post-Colonialisme) والتي يمثلها مجموعة من المفكرين منهم إدوارد سعيد وهومي بهابها، وما قدّمه إدوارد سعيد في كتابه (الثقافة والإمبريالية) يشكلّ إسهاماً أساسياً في تقديم فكر فانون للثقافة العربية، ونجده يقارن بين ما قدّمه فانون في كتابه معذبو الأرض وما قدّمه ميشيل فوكو (Michel.foucault) في كتابه (تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي)^[٤].

وقد طرح فانون عدّة مسائل ذات بعد فلسفي، منها فلسفة الاعتراف التي شكّلت

[١]- فريدريش، هيغل، فينومينولوجيا الروح.

[٢]- فانون، فرانز، في التفكير ما بعد الحداثي مجلة القدس العربي، م.س، بتصرف.

[٣]- بغورة، زواوي، الهوية والعنف نحو قراءة جديدة لموقف فرانز فانون، ومجلة يتفكرون، ومنتدى مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، تاريخ الزيارة ٢٠/٩/٢٠٢٣، الرابط:

<https://www.mominoun.com/articles/-2688>

[٤]- فوكو، ميشيل، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي (histoire de la folie a l'âge classique).

إحدى أهم الموضوعات الأساسية في كتابه، وقضية جدل السيد والعبد، وهي من إرث الفيلسوف هيغل الذي صاغ موضوع السيد والعبد في كتابه فينومينولوجيا الروح واحتلّ موضوع الاعتراف مكانة مركزية عند فلاسفة الاعتراف الذين تناولوه بالتحليل والنقد، منهم بول ريكور (Paul-Ricœur ١٩١٣-٢٠٠٥) مسار الاعتراف^[١]، وغيرهم. أمّا فانون فإنه لم يكتف بشرح موقف هيغل في الاعتراف إنما أضاف إلى جدلية السيد والعبد جدلية جديدة، وهي السيد والزنجي، وجاء ذلك بشكل صريح في فصله السابع من كتابه (بشرة سوداء وأفنعة بيضاء)، الزنجي والاعتراف^[٢].

ومما نقله زواوي بغورة من ترجمة لكتاب فانون في فصله السابع في مسألة الاعتراف أن الإنسان لا يكون إنساناً إلاّ عندما يفرض نفسه على إنسان آخر بهدف الاعتراف به، وهذا الانقلاب في العلاقة بين السيد والعبد من خلال الاعتراف ما هو إلاّ انتقال من نمط معين إلى نمط آخر حالة المريض الذي يقرّر الطبيب أنّه شفي، لكن لا يمنع ذلك من معاودة المرض، فالسيد الزنجي لم يناضل من أجل الحرية، وإنّما السيد الأبيض هو من اعترف به في لحظة معينة؛ لذلك لا يدرك قيمة الحرية والعدالة، لكن ليس كما يفهمها الرجل الأبيض؛ لذلك فإنّ الأنا تفرض نفسها المعارضة وهو ما يسمّيه فانون بالفعل أو الممارسة لتحقيق الحياة والحب ورفض أي إذلال أو استغلال للإنسان أو احتقاره^[٣].

إنّ القضايا التي طرحها فرانز فانون في خضمّ الخطاب ما بعد الكولونيالي كالتحرّر والانشطار أي نفي الهوية الاستعمارية وفلسفة الاعتراف هي القضايا ذاتها التي تؤسّس لعلم الاستغراب في مفهومه العملي والإجرائي؛ حيث استطاع الاستغراب أن يمنح (الأنا) القدرة على دراسة الآخر وتحويله إلى موضوع خاضع للتقويم والتقييم. وبذلك يصبح الاستغراب كما دعا إليه منظّره ضرورة واقعية ملحة، وحاجة

[١]- بول ريكور، سيرة الاعتراف، (Parcours-de-la-reconnaissance).

[2]- le nègre et la reconnaissance, Frantz fanon, Peau noire; masques blancs; p.242.

[٣]- بغورة، زواوي، الهوية والعنف نحو قراءة جديدة لموقف فرانز فانون، م.س، بتصرف.

معرفية يلجأ إليها الباحثون في سبيل إعادة ترتيب أولويات البحث العلمي ومنطقاته التي يتوجب عليها من خلال كسر طوق الاحتكار الذي ألفه الآخر سبيلاً للهيمنة وبسط النفوذ وادعائه امتلاك ناصية الحل وتمركزه حول المنتج العلمي من أجل إعادة التوازن لطبيعة العلاقة التي تحدّد مكانة الأنا وقيمتها عند الآخر^[١].

٥. خاتمة

وفي خاتمة هذه المداخلة يتّضح لنا من خلال تتبّع نشأة نظرية مابعد الاستعمار والإشكالات الجوهرية التي تطرحها هذه النظرية مثل علاقة الأنا بالآخر وعلاقة الشرق بالغرب وعلاقة الهامش بالمركز وعلاقة المستعمر بالشعوب المستعمرة، وهي إشكالات تصبّ في مفهوم الاستغراب، حيث يتقاطع هذا الأخير مع نظرية مابعد الاستعمار؛ لأنّ كلّاً منهما يشكّل قراءة للفكر الغربي في تعامله مع الشرق ومحاربة سياسة الاستعلاء، فتعرية التصورات الفكرية والذهنية والإيديولوجية للغرب مرهون بفهم الغرب، ولا يكون ذلك إلّا من خلال الاستعانة بعلم الاستغراب، أو إعادة النظر في كثير من المسلّمات والمقولات الغربية في إطار ما يسمّى بعلم الاستغراب.

إنّ نظرية مابعد الكولونيالية من أهمّ النظريات ذات الطابع الثقافي والسياسي تهدف إلى تحليل ما أنتجته الثقافة الغربية باعتبارها خطاباً يحمل في طيّاته توجّهات استعمارية إزاء الشعوب التي تقع خارج المنظومة الغربية، وهي تدخل كأصل منهجي في علم الاستغراب الذي أخذ توجّهات عديدة في دراسة الغرب ومشروع التجديد من خلال العودة إلى التراث وإحياء القيم الإسلامية ثمّ الموقف من التراث الغربي ونقده.

[١]- سعد الله، محمد سالم، نظرية الاستغراب في الفكر العربي المعاصر، ص ٥٤.

لائحة المصادر والمراجع

١. النشار، مصطفى، المركزية الغربية نشأتها التاريخية وخلفياتها الإيديولوجية، رؤيا انتقادية، مجلة الاستغراب، العدد ٢٩، شتاء ٢٠٢٣.
٢. لومبا، آتيا، في نظرية الاستعمار ومابعد الاستعمار الأدبية، ترجمة: محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار، اللاذقية سوريا، ط١، ٢٠٠٧.
٣. الرويلي، ميجان، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت لبنان، ط٣، ٢٠٠٢.
٤. حمداوي، جميل، نظرية ما بعد الاستعمار الأطروحة في خدمة علم الاستغراب، مجلة الاستغراب دورية فكري تعنى بدراسة الغرب وفهمه، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية بيروت، العدد الثاني عشر، السنة الرابعة، صيف ٢٠١٨.
٥. حنفي، حسن، مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة (دط).
٦. بيل أشكروفت وآخرون: الإمبراطورية ترد بالكتابة، آداب ما بعد الاستعمار النظرية والتطبيق، ترجمة: خيري دومة، دار أزمته، عمان، الأردن، ٢٠٠٥.
٧. بعلي، حفناوي، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، منشورات الاختلاف، ط١، ١٤٢٨، ٢٠٠٧.
٨. سعيد، إدوارد، العالم والنص والناقد، ترجمة: عبد الكريم محفوظ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٠.
٩. إدوارد، سعيد، الثقافة والإمبرالية، ترجمة: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٩٧ من مقدمة الكتاب.
١٠. كوت، ديفيد، فرانز فانون سيرة فكرية، ترجمة: عدنان كيالي، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة جمهورية مصر العربية، ط١، يناير ٢٠١٧.
١١. فانون، فرانز، معذبو الأرض، تقديم: ك شولي، موفم للنشر الجزائر عاصمة الثقافة العربية، ٢٠٠٧.
١٢. فانون، فرانز، معذبو الأرض، (les-damnes-de-la-terre)، ترجمة: سامي الدروبي وجمال الأناسي، دار الطليعة، بيروت، ط٣، ١٩٧٩.

١٣. رابحي، عبد القادر، كامو... قانون معكوساً عن الخيار الكاموي وغربة المثقف الجزائري، مجلة القدس العربي، العدد ٧٣٧٥ آذار/ مارس ٢٠١٣ / ١٤٣٤، مجلد ٢٤.
١٤. فانون، فرانز، سوسيولوجية ثورة، (Sociologie-d'une-révolution) ترجمة: ذوقان قروط، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٠.
١٥. دوري، ثائر، أشباح فانون، كنعان مجلة فكرية ثقافية إلكترونية، السنة السابقة، العدد ١٠٨٦، ٧ آذار/ مارس ٢٠٠٧. www.kanaanonline.org
١٦. هومي. ك. بابا، موقع الثقافة، ترجمة: ثائر ديب، المشروع القومي للترجمة، ط١، ٢٠٠٤.
١٧. فانون، فرانز، في التفكير ما بعد الحداثي الكلمة والشيء، مجلة القدس العربي، عدد ٧٥٤٢، السنة الخامسة والعشرون، ١٨ أيلول سبتمبر ٢٠١٣، تاريخ الزيارة: ٢٠ / ٩ / ٢٠٢٣، الرابط: <https://www.alquds.co.uk>
١٨. فريدرش، هيغل، فينومينولوجيا الروح، ترجمة: ناجي العونلي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، نيسان أبريل ٢٠٠٦.
١٩. بغورة، زواوي، الهوية والعنف نحو قراءة جديدة لموقف فرانز فانون، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، ومجلة يتفكرون، فصلية فكرية عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود، العدد الخامس، خريف ٢٠١٥، ومنتدى مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، أبريل ٢٠١٥، تاريخ الزيارة ٢٠ / ٩ / ٢٠٢٣، الرابط: <https://www.mominoun.com/articles/-/2688>
٢٠. فوكو، ميشيل، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي (histoire de la folie a l'âge classique)، ترجمة: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ٢٠٠٦.
٢١. ريكور، بول، سيرة الاعتراف، (Parcours-de-la-reconnaissance) ترجمة: فتحي إنقزوّ، مراجعة: محمد محبوب، المركز القومي للترجمة، دار سيناترا، تونس، ط١، ١٠١٠.
٢٢. سعد الله، محمد سالم، نظرية الاستغراب في الفكر العربي المعاصر، مجلة فتوحات، جامعة عباس لغرور خنشلة، العدد الأول جانفي، ٢٠١٥.
23. Frantz Fanon, Peau noire, masques blancs (essai), première publication: 1952, Édition Talantikit, Bejaia, 2015.